مجلة علم النفس

مجلد ٧ | فبراير — مايو ١٩٥٢ | عدد ٣

سيكولوجية التعصب *

بقلم

الدكتور مصطفى زبور

أستاذ علم النفس بجامعة إبراهيم

لعلنى لست فى حاجة إلى بيان المعنى الذى يجب أن يستفاد من طرح مشكلة اليوم للبحث والمناقشة تحت إشراف الجمعية الطبية للصحة العقلية وفى كنفها . فعند ما تناولت الحديث فى هذه المسألة مع رئيس هذه الجمعية كان حديثنا يجرى فيها بوصفنا أطباء نفس معنيين بمشكلات الصحة العقلية فى مصر . ولما كانت هذه الجمعية قد أنشئت لبحث هذه المشكلات والعمل على علاجها فقد صحت عزيمة الرئيس على أن يدرج مشكلة اليوم فى برنامج أعمال الجمعية ، وأن يكلفنى بطرح المشكلة أمامكم للبحث والمناقشة .

أطرح أمامكم اليوم إذن موضوع سيكولوجية التعصب بوصفه مشكلة من مشاكل الصحة العقلية فى مصر . وبعبارة أخرى إننا نسلم فى بداية هذا الحديث بأن التعصب إذا وصل إلى درجة معينة من الحدة يصبح عاملا من عوامل تقويض وحدة المجتمع ، وينم عن اضطراب فى ميزان الصحة العقلية الاجتماعية ، مما يفسد تماسك المجتمع ويهدد كيانه . فالأمر لا يختلف فى نظرنا عما يحدث للفرد عندما تستبد به عوامل الصراع الداخلى فتعتل شخصيته ، ويختل توازنه ، ويصبح فى عداد المرضى .

* محاضرة ألقيت فى ١٠ فبراير ١٩٥٢ بدار الحكمة تحت إشراف الجمعية المصرية للصحة العقلية

ولدينا ما يدل على أن الوعى القومى قد أدرك خطورة المشكلة فيما بدا من اهتمام بالغ من كل صوب . فقد هب أولو الأمر من الأقباط والمسلمين جميعاً هبة قوية يذودون عن وحدة الأمة ، وجرت بالأمس على لسان الأنبا متاؤوس عبارة رائعة تفصح أحسن الإفصاح عن هذا الإدراك القومى قال : « إن النار إذا شبت فى كنيسة يمكن إخمادها بقليل من الماء ، أما إذا اندلعت ألسنة النيران فى وحدة الأمة فإن ماء النيل كله لا يطفئها » .

وإن طرحنا لهذه المشكلة للبحث يفترض أمرين : الأول أننا نؤمن بأننا إزاء ظاهرة من الظاهرات التى تقبل البحث ، وأنه لا بد لنا من فهم لأسباب العلة وأصولها إذا أردنا لها علاجاً ناجعاً . والأمر الثانى أننا على استعداد لتجنيد قوانا لهذا البحث وأمثاله ، لأنه من غير المعقول ولا المقبول أن يقتصر عمل المشتغلين بعلم النفس فى مصر على تلقين الطلاب تجارب الفيران فى المتاهة ، أو تقديم العلاج النفسى لفرد مريض ، ثم يقفون مكتوفى الأيدى إذا حلت غمة بمجتمعنا . إن الوقت وقت تجنيد القوى ، فالعلم الذى لا يستطيع أن يسخر نفسه لخير الأمة فلا خير فيه .

بقى أن مشكلة اليوم مشكلة شائكة من حيث إنها مصدر لانفعالات شديدة ، ويكفى أن نذكر أن كلمة التعصب لم يرد ذكرها فى الصحف التى أشارت إلى مشكلتنا حتى يتضح لنا أننا إزاء مادة قابلة للاشتعال ، ينبغى أن نتناولها فى كثير من الرفق والحذر .

على أننا نحن معشر المشتغلين بعلوم النفس نعلم أن النفس الإنسانية تنفر من الكشف عما يدور فى حناياها من ميول ، وتكره أن تواجه فى إخلاص ما تنطوى عليه من نزعات ، ونؤمن بقول نيتشة : « إن الأخطاء تنجم أكثر ما تنجم من الجبن عن مواجهة الحقائق » . لا بد لنا إذن من أن نستبدل بسياسة النعامة سياسة التبصر ، إذا كنا نؤمن بأن خير وسيلة لضبط الانفعال إنما هى تحليل الانفعال .

وإن لنا فى تاريخ هذا العلم خير سند لما نذهب إليه . فلم يصل علم النفس إلى شىء ذى جدوى إلا بعد أن استطاع أحد رواده أعنى فرويد ألا يجفل من أن يفتح عينيه على ما يدور فى قرارة نفسه مهما كان بغيضاً ، وكلنا نعلم أن هذا هو الثمن الذى يجب أن يدفعه المريض إذا أراد لنفسه شفاء .

علينا إذن أن نتجمل بكثير من الشجاعة والأناة ، بل علينا أن نفتح أعيننا على ما يدور فى أنفسنا عند بحث التعصب حتى لا نصدر فى ما نقرر إلا عن الحقيقة وحدها . ولقد يتندر أحدنا فيقول : ألا يكون البحث فى التعصب صادراً عن نوع من التعصب . إننا نعلم أن الشفقة قد تكون رد فعل لما تنطوى عليه النفس من القسوة ، ولقد تبين من سيرة تولستوى الملقب بنبى الرحمة أنه كان يحذق تعذيب أفراد عشيرته ممن لم يؤمنوا بمثله الأعلى . فكأن سلوكه الرحيم لم يكن إلا انتصاراً على نزعاته إلى القسوة والعنف . ولكنكم قد ترون معى أنه لا بأس علينا فيما نصدر عنه إذا كانت الرحمة رائدنا ، وأنه خير لنا أن نصدر فى رحمتنا عن القسوة من أن نكون عاطلين عن القسوة والرحمة جميعاً .

* * *

وبعد فإن القضية الأولى فى هذا البحث أن التعصب ظاهرة اجتماعية لها بواعثها النفسية ، ولا يغير من الأمر شيئاً أن يكون التعصب دينيا . فقليل من التفكير يدلنا على أن التعصب الدينى لا يختلف لا فى مبناه ولا فى معناه عن أى نوع من أنواع التعصب التى تنشأ بين الأجناس أو بين الأحزاب السياسية أو بين المذاهب الاجتماعية وما إلى ذلك .

ولقد أستطيع أن أسوق إليكم مثالا أستمده من خبرتى الإكلينيكية ، يدل فى وضوح على أن هذه الظاهرات التى تتصف بأنها دينية ، تنشأ أولا وقبل كل شىء من بواعث نفسية لا علاقة لها فى الأصل بالعقيدة الدينية .

جاءنى شاب يونانى على درجة عظيمة من الذكاء والثقافة ، يشكو أعراضاً من نوع هستيريا القلق ، ثم اضطراباً عاماً فى سلوكه وخاصة نحو النساء ، فلم يكن يستطيع أن يخلد إلى واحدة منهن ، بل كان يجد نفسه مدفوعاً إلى أن يتصيد قلوبهن الواحدة بعد الأخرى ، ثم يهجرهن سريعاً . قبلته للعلاج بالتحليل النفسى وقضينا فيه نحو سنة ونصف سنة شفى فى نهايتها شفاء تاماً . والمهم لدينا هنا أن هذا الشاب الذكى المثقف كان يعتنق الشيوعية ثم كان ملحداً . ويجب أن أذكر أنه كثيرا ما كان يقحم فى حديثه أثناء التحليل مشاكل الدين والمجتمع ، ولكنى لم أناقشه فيها مرة واحدة ، لأن هذا ليس من مهمة التحليل كما هو معروف . وكم كانت دهشتى عظيمة عندما تبينت فى نهاية التحليل ، أن هذا الشاب شفى لا من أعراضه الهستيرية فحسب بل وتخلى عن شيوعيته وإلحاده .

لا أقصد أنه أصبح متديناً متحمساً لدينه ، وإنما أقلع عن تشبثه وتحمسه لفكرة الإلحاد.

ويضيق المجال هنا عن تفصيل القول فيما كشف عنه التحليل من المعانى السيكولوجية التى اكتنفت اعتناقه للشيوعية والإلحاد ، وسأكتفى بذكر الخطوط الرئيسية التى تتصل بهدفنا مباشرة . كانت الخبرة الباتوجنية وما نجم عنها من اضطراب فى السلوك تنحصر فى علاقته بأمه أثناء سنوات الطفولة . فقد كانت أمه سيدة عصابية وكان سلوكها يتنازعه تياران . فمن ناحية كانت تختصه بعناية مفرطة وعطف زائد ، كان من شأنها أن عطلا نموه الوجدانى ، إذ استمرأ هذا العطف وهذه الرعاية وتشبث بموقفه الطفلى منها . ومن ناحية أخرى كانت حريصة شديدة الحرص على أن تربيه تربية مثالية ، تتفق مع قواعد التهذيب السائدة فى الأوساط الأرستقراطية ، وكانت تستعين فى ذلك بالمربيات الأجنبيات . وهكذا كان الطفل حائراً بين رغبة ملحة ، دفعه إليها سلوك أمه ، فى الاعتماد عليها اعتماداً تاماً والاستمتاع بعطفها الزائد ، وبين قواعد ومُثُل يُلقنها ، تضع حدوداً لا يجب أن يتعداها . ولست فى حاجة إلى الإشارة إلى أن هذا السلوك المتناقض من قبل الأم ، كان صدى لما يعتلج فى نفسها من صراع ، وخاصة لما يحتدم فى نفسها من كراهية لمظاهر الرجولة والاستقلال . والنتيجة الحتمية من هذا كله أن الطفل شقى بشعور مرير بالخيبة ، دفعه عندما أدرك مرحلة البلوغ ، إلى مناهضة كل ميل فى نفسه إلى التواكل والاعتماد والإذعان ، بل كل ميل إلى التعاطف وتبادل الرحمة ؛ فكأنه كان يخشى أن يؤدى به ذلك إلى أن يعانى الشعور بالخيبة والمرارة من جديد . فكان نفوراً من كل موقف عاطفى لا يكاد يقيم علاقة مع امرأة حتى يبادر بقطيعتها خشية أن يلقى منها القطيعة ، وكان ناكراً مستنكراً لكل نظام يتضمن الحب والإذعان ، فأنكر النظام الاجتماعى السائد واعتنق الشيوعية بدوافع ذاتية ، كما أنكر إخلاصه لعقيدة أبويه واعتنق الإلحاد . وهو فى هذا كله كان يناهض حنينه إلى تلقى الحب ورغبته الملحة فى الإخلاص والارتكان إلى صدر رحيم .

وهكذا نستطيع أن نقرر أن الإلحاد (أى التعصب ضد العقيدة الدينية) قد يكون رد فعل لرغبة عنيفة فى الإيمان ، تتوجس النفس من عواقبها شراً . وسنرى بعد قليل أن العكس قد يكون صحيحاً ؛ بمعنى أن التدين الوسواسى والتعصب للعقيدة ، قد يكون رد فعل لميول عنيفة نحو التمرد على سلطان الدين ، وبصفة عامة على السلطان أيا كان نوعه .

وتحضرنى هنا قصة فكاهية تحمل معنى سيكلوجياً عميقاً . ذهب رجلان للصلاة فى الجامع ، فلما انتهيا منها جلسا يدعوان الله . فقال الأول : اللهم اهدنى الصراط المستقيم ، اللهم قوِّ إيمانى . أما الثانى فقد انطلق قائلا : اللهم اهدنى صندوقاً من الويسكى . فأغضب ذلك الرجل الأول وصاح به كيف تجسر يا رجل وتنطق بهذا الكفر . فأجابه الثانى فى هدوء : هون عليك يا صاحبى . أنت ينقصك الإيمان فتطلب من الله أن يقوى إيمانك ، أما أنا فلا ينقصنى الإيمان ، وإنما ينقصنى الصندوق .

* * *

لقد كان فى نيتى أن أستعرض أمامكم بعض الشواهد المستمدة من خبرتى الإكلينيكية من ناحية ، ومن الاختبارات التى تمت فى مصر والشرق الأوسط من ناحية أخرى ، ثم أن أشرككم معى فى استخراج النتائج . ولكن يبدو لى أن الوقت لن يتسع لهذه الطريقة المطولة ، وأوثر أن أنفذ إلى قلب الموضوع مباشرة ، أى أن أبدأ بالنهاية ، على أن أعود بكم بعد ذلك إلى الأصول .

ومن أجل ذلك فإننى أطرح أمامكم السؤال الآتى : لم وقع حادث كنيسة السويس فى ذلك الوقت بالذات وفى ذلك المكان بالذات ؟ إن الأمر لا يحتاج أن نكون من علماء النفس لكى نتبين أن الفترة الراهنة إنما هى فترة انتقال إلى الفعل ، فاضت فيها المشاعر حتى بلغت مرحلة التنفيذ والتعبير المادى . أما السويس فهى إحدى مدن القنال أى تلك المنطقة التى اتسمت حينذاك باستباحة العدوان بل بتمجيده . ولكن ما الذى حدث ؟ إن هدف العدوان إنما هو الإنجليز فكيف ارتد العدوان على بعض زملاء الجهاد . وهنا يحسن بنا أن نستعين بمعارفنا السيكولوجية . إننا نعلم أن العدوان طاقة انفعالية لا بد لها من منصرف ، ولا مناص من أن تتخذ لها هدفاً تفرغ فيه شحنتها الزائدة . وفى الظروف الاجتماعية العادية ، يجد العدوان منصرفاً فى أنواع النميمة وتجريح الغير أو فى النكتة اللاذعة . وعندما يصل العدوان إلى درجة بالغة فى الشدة ، أو عندما تتخاذل أساليب ضبطه ، فإنه يميل إلى الفتك فتكاً مباشراً بمصدر النقمة . أما إذا استحال الوصول إلى مصدر النقمة ، فإن العدوان يلتمس هدفاً آخر يصبح بمثابة كبش الفداء . وكلنا نعرف مثل المرؤوس الذى يكظم غيظه من سوء معاملة الرؤساء حتى إذا عاد إلى بيته صب جام غضبه على

أهله . ويدل إحصاء حوادث العدوان على الزنوج فى الولايات المتحدة الجنوبية ، على أن هذه الحوادث تزداد زيادة ملحوظة كلما هبطت أسعار القطن وهو المحصول الرئيسى لهذه الولايات ، كأن الزنوج هم المسئولون عن هذه الضائقات المالية(١) .

يحتمل العدوان إذن النقل أى استبدال هدف بهدف ، وإذا حيل بينه وبين الإفراغ فإنه لا يلبث أن يرتد نحو الذات فتفتك النفس بنفسها . وتحضرنى هنا قصة تفصح عن معنى سيكولوجى عميق . فقد اعتادت طفلة ألمانية أثناء الحرب الماضية أن تعتدى على جاراتها من الأطفال اليهود . حتى إذا صدر الأمر باعتقال جميع اليهود بما فيهم الأطفال جعلت هذه الطفلة تبكى وتؤذى نفسها باللطم . فسألتها أمها : أتبكين رحيل هؤلاء اليهوديات التافهات ؟ فأجابت نعم يا أماه فلم يعد لدى من أصب عليه جام غضبى . فكأنها كانت تخشى أن تعرضها غيبة كبش الفداء إلى أن تؤذى من تحب من أهلها ، فالمحبوب كثيراً ما يكون المصدر الأصيل للحرمان والخذلان والنقمة . فكأن قابلية العدوان للنقل تستخدم أحياناً لتخليص الحب من شوائب الكراهية وفى الإبقاء على المحبوب ، وفى نهاية الأمر فى الإبقاء على الذات .

إن ظاهرة كبش الفداء من الظاهرات التى يعرفها الأنثروبولوجيون الاجتماعيون قبل أن يعرفها ويفسرها علماء النفس . ولقد أفرد جيمس فريزر باباً بأسره لهذه الظاهرة فى كتابه المشهور « الغصن الذهبى » والذى يهمنا منها الآن هو نشأتها كظاهرة اجتماعية ، ثم علاقتها بكيان المجتمع . تدل الدراسات الأنثروبولوجية على أن ظاهرة كبش الفداء تقوم بوظيفة حيوية فى ظروف معينة . ولنذكر بهذا الصدد موقف ألمانيا النازية من اليهود(٢) . فلقد كان فى اتخاذهم اليهود كبشاً للفداء ما جنبهم أكثر من خطر ولو إلى حين . فقد كان معظم أفراد الأمة الألمانية قبيل الحكم النازى يقيمون على شعور بالمرارة والحرمان وكان الشقاق وتنابذ الأحزاب ينذر بقيام ثورة أو حرب أهلية تفضى إلى تقويض المجتمع الألمانى بأسره . فكأن العدوان على اليهود أفادهم فى تصريف قدر عظيم من النقمة مصدره الحقيقى ظروف حياتهم الداخلية ، كما دفعهم إلى التماسك فحلت الوحدة محل التفكك . ولست فى حاجة أن أذكركم أن التعصب ضد اليهود والعدوان عليهم لم يشف غليلهم ولم يحل مشاكلهم الداخلية ، فاضطروا

إلى توجيه العدوان إلى الدول المتاخمة ، مما جرهم فى نهاية الأمر إلى هزيمة منكرة وانهيار ذريع .

وبعد فلقد تذكرون أنكم كنتم مدعوين إلى الاستماع إلى هذا الحديث يوم ٢٧ يناير الماضى ، وأنه تأجل بسبب حوادث ٢٦ يناير . وكانت مذكراتى لهذا الحديث مكتوبة قبل ذلك التاريخ ، ثم جاءت حوادث ٢٦ يناير ، دليلا مؤلماً مريراً على ظاهرة نقل العدوان مرة أخرى . فقد وجد العدوان فى حوادث ٢٦ يناير كبشاً أغلى ثمناً وأسمن لحماً من حادث السويس . ولعلنا نفطن الآن إلى أننا إزاء مشكلة حيوية لا بد لحلها من تعبئة كاملة لكل قوانا . وقد أردنا بهذا الحديث وما يتبعه من مناقشة أن يكون بداية لتعبئة ما نملك بوصفنا علماءنفس.

* * *

يخلص لنا مما سبق أن مركز مشكلة التعصب الذى تدور حوله كل مظاهرها إنما هو العدوان وقابليته للنقل . ولا بد لنا الآن أن نحاول الإجابة على السؤال الذى تستثيره هذه النتيجة . إننا نعلم أن الظاهرات النفسية لا يمكن أن تتم جزافاً ؛ فما الذى يدفع إلى اختيار هدف ينتقل صوبه العدوان دون غيره ؟ وبعبارة أخرى ما هى الصفات التى يجب أن تتوفر فى موضوع بعينه حتى يصلح أن يكون كبش فداء ؟

لقد تسمحون لى هنا أن أستعين بخبرتى الإكلينيكية ، فقد أتيح لى أن أعالج بالتحليل عدداً من الأقباط ، فضلا عن من عالجت من الكاثوليك الفرنسيين ومن اليهود . ونحن نعلم أن التحليل النفسى ينفرد من بين فروع الطب بميزة هامة ، وهى أنه يضم فى عملية واحدة طريق العلاج وطريق البحث . فضلا عن ظاهرة التحويل التى تنشأ أثناء العلاج — وهى فى نهاية الأمر نوع من النقل — تمكن المحلل من أن يستوضح مستغلقات النفس فى ظروف هى نفس ظروف البحث التجريبى ، من حيث أن التحويل يحقق بعثاً فى نطاق محدود معلوم لجميع المقومات النفسية .

وإليكم حلماً لمريض قبطى : رأى عدداً من الأطفال يصيحون ويعبثون ، ثم التقى بمكرم عبيد باشا وقال له « لا تلتفت إليهم فإنهم مسلمون متعصبون » ولا بد أن أذكر أن هذا المريض كان يفصح عن مقاومته فى الجلسات السابقة بفترات طويلة من الصمت ، ثم أعرب عن ظنه أننى لا بد أن أفضل عليه

غيره من المرضى ممن ينطلقون فى الحديث . ومن بين الخواطر التى تداعت له مع هذا الحلم ، أنه لمح عندى فى اليوم السابق مريضة كان يبدو عليها البشر والارتياح ، مما يدل — فى نظره — على أننى أعالجها علاجاً جيداً . ثم انتقل بعد برهة إلى الحديث عن إخوته وأخواته ، وكيف أنه كان لا يطيق أن يرى أمه تختصهم بشىء من العطف ، أو أن تذكر مناقب أحدهم . يتضح إذن أن مكرم عبيدباشا فى هذا الحلم كان يمثلنى ويمثل أم المريض ، وأن الحلم يدور حول الغيرة من الأخوة والأخوات وتنافسهم فى حب الأم . والخلاصة أن الاتهام بالتعصب — وهو يتضمن الشعور بالتعصب — قد يستخدم فى ميدان المنافسة بين الأقران كوسيلة لإسقاط* الكراهية على الشخص المنافس .

لننتقل الآن إلى عامل آخر من عوامل اختيار كبش الفداء فى ظاهرة التعصب . ولكى نفهم طبيعة هذا العامل يجب أن نذكر أن اعتناق الطفل للمعانى الدينية ، لا يبدأ حقيقة إلا فى مرحلة الكمون حوالى سن السابعة ، أى عند نشأة الضمير الخلقى ، وبعد انتصاره على دوافع الكراهية إزاء الأب ، تلك الدوافع التى كانت تصطرع فى نفسه اصطراعاً عنيفاً إبان المرحلة الأوديبية** . وهكذا فإن الإذعان لسلطان الدين يسير جنباً إلى جنب مع الإذعان لسلطان الأب ، ويشتركان فى جميع الصفات النفسية ، مما حدا بالمحللين إلى اعتبار الإذعان لسلطان الدين نوعاً من الإسقاط للإذعان لسلطان الأب .

على أن مكتشفات التحليل النفسى تدلنا على أن الانتصار على دوافع الكراهية نحو الأب ، لا يعنى فناءها ، وعلى أن هزيمتها لا تدوم إلا بدوام مناهضتها . ولما كان وجود فرد أو جماعة لا يذعنون لما نذعن له ، ولا يعبدون ما نعبد ، يقوم دليلا على أن السلطان الذى أذعنا له غير مطلق ، فإن هذه الجماعة تصبح أشبه شىء بمحرض لدوافع الكراهية نحو التمرد . والنتيجة الطبيعية من ذلك ، أنه لا بد من محاربة الكافر بما نؤمن به ، حتى لا يتاح لعوامل الكراهية الذاتية أن تتمرد .

ويمثل تطور ظاهرة التحويل*** هذه الحقائق أحسن تمثيل ، عند ما يستعيد

* الإسقاط اصطلاح يقصد به إلصاق صفة ذاتية بشخص آخر تفادياً من رؤيتها فى الذات .

** المرحلة الأوديبية تقع بين الثالثة والسادسة من العمر يعانى أثنائها الطفل الذكر شعوراً بالكراهية نحو أبيه إلى جانب شعوره بالحب له .

*** أى تلك الانفعالات التى يستشعرها المريض نحو المحلل أثناء العلاج .

المريض الموقف الأوديبى ويلبس المحلل فى نظر المريض رداء المحرض ، وذلك بسكوته على نهضة نزعات المريض نحو التمرد على السلطان الأبوى . فإذا كان المريض يشترك مع طبيبه فى العقيدة الدينية ، فإنه يوجه إليه النقد فى هذه الظروف ، فى عبارات تكاد تكون صدى لما يوجهه من نقد لعناصر التمرد فى نفسه . أما إذا اختلفا فى العقيدة الدينية ، كأن يكون المريض قبطيًّا والمحلل مسلماً ، فإن المريض يقحم التعصب ويجعل منه هوة تباعد بينهما . وبعبارة أخرى فإن شعور المريض بالتعصب فى هذه الظروف ، إنما هو إبقاء على النظام الذى أقامه فى نفسه لضبط تمرده .

أما العامل الثالث فى تبرير التعصب أى فى اختيار كبش الفداء ، فهو فى نظرى أهم من العاملين السالفين ، لأنه ألصق منهما بغريزة حفظ البقاء ، ولهذا فإنى أميل إلى تسميته بالعامل النرجسى* .

لا شك أنكم تعلمون أن المريض يبادرنا فى بدأ التحليل بنوع خاص من المقاومة ، تتلخص فى إحساسه بأن التحليل يكاد يكون معولا يهدد كيانه بالدمار ، أو إنه مجازفة حمقاء تعرضه لأشد الأخطار . ويجب أن أذكر أن الأمر قد يكون كذلك بالفعل ، وعلى المحلل أن يميز منذ البداية بين الحالات التى تصلح للتحليل ، وتلك التى يخشى عليها منه .

ولكى أبرز لكم قوة هذا النوع من المقاومة ، يجب أن نذكر أن الأصحاء الذين يخضعون أنفسهم للتحليل لغرض تعليمى ، لا يقل هذا النوع من المقاومة لديهم فى شدته عن مثيلها لدى المرضى . ذلك أن هذا النوع من المقاومة إنما هو صدى لكفاح الكائن فى الدفاع عن النفس ، والدفاع عن النفس يعنى من الناحية السيكولوجية الاحتفاظ بالبناء الراهن للشخصية مهما كان فيه من عوج ، ومهما كلف ذلك من الشقاء ، حتى لنجد بعض الأفراد وقد تحصنوا فى نوع من القلاع التى لا نفاذ إليها .

وتتخذ هذه المقاومة أشكالا مختلفة ، منها هذا النذير بالخراب والدمار الذى تترجم عنه الأحلام فى صور تهدم البيوت أو تساقط القنابل ، أو التحذير من فتك الميكروبات (كما ترجم عنه حلم مريض فرنسى أثناء وباء الكوليرا الأخير فى مصر ، ونسب مصدر الوباء إلى شخصى) ، أو بتمثيل المحلل

* نسبة إلى نرجس فى الأسطورة اليونانية الذى أغرم بحب نفسه .

بلص أو قاطع طريق يسطو على أمتعة الناس ، أو بمدير لمقاصف اللهو والدعارة التى لا ينتظر من غشيانها إلا الشر . فإذا اختلفت عقيدة المحلل وعقيدة المريض من الناحية الدينية ، فإن المريض قد يتخذ من التعصب درعاً يتقى به شر المحلل .

ولا بد لنا أن نتبين السبب الذى يدعو إلى اتخاذ التعصب وسيلة للدفاع عن النفس . وهنا يجب أن نذكر أن الطفل عندما يقلع عن أوهام القدرة المطلقة التى تبعث فيه الشعور بالأمان ، وتزوده بالطمأنينة ، لا يلبث أن يتوحد بأبويه ، وفى مرحلة تالية يتوحد بالطائفة أو المجتمع الذى ينتمى إليه ، ويخلع عليه كل صفات الكمال التى تكفل تزويده بالأمان والطمأنينة . وغنى عن البيان أن كل ما من شأنه أن يشير إلى أن خصائص الطائفة ليست الكمال نفسه ، وأن ثمة من العقائد المغايرة ما يدعو إلى الشك فى هذا الكمال ، فإن ذلك يبعث القلق ويحفز للدفاع عن النفس .

ويمكننى أن أشير بهذا الصدد إلى الخلاف الخاص بين المسيحية والإسلام كما استطعت أن أتبينه من خبرتى الإكلينيكية . فالمسيحية تعترف فى صراحة بالخطيئة الأولى ، ثم تعمد إلى التكفير عنها بقبول فكرة صلب المسيح (وهو ما يراه المحللون رمزاً للإخصاء) . على أن العقاب بالصلب لم يقع إلا لشخص المسيح الذى يقوم بوظيفة كبش الفداء أو المخلص . أما الإسلام فإنه ينكر حادث الصلب بتاتاً (أى ينكر وقوع الإخصاء) ويعتبره وهماً ، « ولكن شبه لهم » . أما وقد أنكر الإسلام الصلب فقد أنكر ما يوجب مثل هذا العقاب الشنيع . وبعبارة أخرى فإن النظرية المسيحية تقترب اقتراباً خطيراً من صراعات الطفولة المكبوتة إذ تعترف بالصلب وبالتالى تستثير قلق الإخصاء لدى المسلم . أما نظرية الإسلام فإنها بإنكارها الصلب تلغى بهذا الإنكار طريق الخلاص فى نظر المسيحى وتستثير فى نفسه قلقاً شديداً .ومهما يكن من أمر هذا التفسير الخاص ، فإن العامل النرجسى يؤيده إسقاط الذات العليا * على زعيم الطائفة أو الفكرة التى تقوم مقام الزعيم ، ويتجه تيار الحب إلى شخص الزعيم الذى تقمص الذات العليا للأفراد ، بحيث تقوم المحبة مقام الرباط الذى يضم أفراد الطائفة جميعاً ، ويناضل الأفراد فى سبيل الطائفة كما يناضل الحبيب فى سبيل

---

* اصطلاح يشير إلى الضمير الخلقى وينشأ من اعتناق شرائع الأب الخلقية .

حبيبه ، كما بين ذلك فرويد فى رسالته عن سيكولوجية الجماعة .

* * *

وينبغى لى أن أشير الآن إلى نتائج بحث قام به الزميل عبد المنعم المليجى[٣] . فى تطور الشعور الدينى لدى الأطفال والمراهقين المصريين . والذى يستلفت النظر فى نتائج بحثه للاتجاهات الدينية أنه تبين له أن هناك أربعة اتجاهات رئيسية : الإيمان التقليدى والحماس الدينى والشك والإلحاد ، وأن نسبة الإيمان التقليدى لدى المسلمين لا تعدو ٤٧ ٪ على حين أنها ٨١,٦ ٪ لدى المسيحين ، ثم إن نسبة الشك ٢٥ ٪ لدى المسلمين على حين أنها صفر لدى المسيحين . أما الإلحاد فنسبته ١ ٪ لدى المسلمين وصفر لدى المسيحين .

وواضح أن هذه النتائج تتفق مع ما قدمناه من اعتبارات فى الدفاع النرجسى . فالمسيحيون فى مصر أقلية ومن ثم كان لا بد لهم من قدر من التكاتف والتوحد بالطائفة ، دفاعاً نرجسياً عن النفس ، أعظم مما يحتاج إليه المسلمون .

على أنه يبدو أن التوحد بالطائفة الدينية أيا كان نوعها وعددها ، أكثر أنواع التوحد فى الشرق الأوسط ، كما تدل على ذلك الاختبارات التى أجريت على الاتجاهات الاجتماعية لطلاب الجامعة الأمريكية ببيروت[٤] ، وهى تضم شباناً من معظم طوائف الشرق الأوسط . فقد أجرى على ١٧٠ طالباً من طلاب هذه الجامعة اختبار ذو خمس درجات فى التباعد الاجتماعى . ويقصد بالتباعد الاجتماعى مبلغ تقبل الأرمنى للتركى مثلا أو اليهودى للمسلم . ففى الدرجة الأولى صيغ التباعد فى العبارة الآتية : إذا أردت الزواج فإنى أتزوج من واحدة منهم ، وفى الدرجة الرابعة صيغ فى عبارة : لا أرتاح لمصاحبة هؤلاء الناس ، وفى الدرجة الخامسة : وددت لو قتلوا جميعاً . وكان بين المختبرين نحو ٩٠ تباعداً من ناحية القومية و٦٦ من ناحية الدين و ١٥ من ناحية الحالة الاقتصادية . وقد استوثق من ثبات هذا الاختبار ومن صحته بالطرق المألوفة . ومما يدل على صحة هذا الاختبار أن الطوائف التى كان يتوقع أن يكون التباعد بينها على أعظم درجة ، مثل التباعد بين عرب فلسطين واليهود ، أسفر الاختبار بصددها عن النتائج المتوقعة .

وقد أسفر هذا الاختبار عن نتائج هامة كثيرة خليقة بأن تسترعى اهتمام علماء النفس والاجتماع فى الشرق الأوسط ، وبأن تحفزهم على دراستها والمضى فى هذا النوع من البحث .

أما النتائج التى تتصل بهدفنا اليوم فهى إن أعظم درجات التباعد كانت بين الفئات الدينية ، أى على أساس العقيدة الدينية . وبعبارة أخرى ، فإن الاتجاهات المتصلة بالانتساب إلى طائفة دينية بزت فى قوتها جميع الاتجاهات الأخرى المتصلة بالقومية أو الحالة الاقتصادية أو التعليمية وما إليها . ويعلق المختبر على ذلك بالإشارة إلى قوة الرابطة الدينية فى الشرق الأوسط ، كما يدل عليها توزيع المنشآت والأحوال الاجتماعية ، مثل السكن فى أحياء بعينها ، وقيام مدارس طائفية ، ثم اختلاف الشرائع والمحاكم الخاصة بالأحوال الشخصية . بل إن التمثيل السياسى نفسه يخضع للأحوال الطائفية .

ويضيف المختبر إلى ذلك قوله إن هذه النتيجة التى أسفر عنها الاختبار تختلف عما أسفرت عنه مثل هذه الاختبارات فى أمريكا . ومن تحصيل الحاصل أن نقول إنه إذا كانت الرابطة الدينية فى الشرق الأوسط تفوق فى قوتها غيرها من الروابط ، فإنما يرجع ذلك إلى ضعف الروابط الثقافية الأخرى وخاصة رابطة القومية . ويكفى أن نذكر أن رابطة القومية بالنسبة للمصريين كانت منذ نحو نصف قرن واهية هزيلة ، بالقياس إلى الرابطة الدينية ، حتى احتاج بعض قادة الرأى وأخص بالذكر منهم لطفى السيد باشا ، أن يذكر مواطنيه فى الجريدة ، أن الوطنية يجب أن تكون محدودة بحدود مصر الجغرافية .

وغنى عن البيان أن الرابطة الدينية فى الشرق الأوسط تقوم مقام الرابطة القومية فى بلاد الغرب ، من حيث وظيفة الإبقاء على الكيان والدفاع عن النفس ، وأن قيام الرابطة الدينية بهذه الوظيفة إنما هو نتيجة طبيعية لفعل عوامل سياسية وتاريخية حالت دون نمو الروابط الثقافية الأخرى بحيث تحل محل الرابطة الدينية . ولا زالت بعض بلدان الشرق الأوسط تتلمس الطريق لبناء شخصيتها الدولية ، فنسمع مثلا عن مشروع سوريا الكبرى ، أو بعض مشاريع الجامعة العربية . ولعل خير مثل على ما تقدم هو فلسطين . فلم تكد تعرف فلسطين لنفسها كياناً يقوم على القومية ، وكانت تحس قبل قيام إسرائيل بالخطر يهدد هذا الكيان ولما يكتمل ، فكان من الطبيعى أن تكون الرابطة الدينية بالنسبة لعرب فلسطين أقوى الروابط إطلاقاً ، حتى أن بعض قادة الرأى منهم كان يدعو إلى ضم فلسطين إلى مصر أو إلى سوريا . وواضح أن اكتمال الكيان الدولى والتقدم والتطور الحضارى يستتبع إحلال الروابط التى تستند إلى القومية محل الروابط الدينية .

* * *

والآن ينبغى لى قبل أن أترك الحديث فى هذا العامل الذى سميته بالعامل النرجسى وربطت بينه وبين غريزة حفظ البقاء ، أن أناقش معكم مشكلة من هذه المشاكل التى تعودنا مناقشتها كلما ذكرت كلمة الغريزة . فنحن نعلم أن بعض قدامى علماء النفس قال بوجود غريزة « الشعور بالنوع » وبوجود ميل غريزى « لكراهية ما هو مغاير » . وفى اعتقادى أننى لست فى حاجة إلى مناقشة طويلة لبيان تفاهة هذه النظريات . فقد تقدمت الدراسات النفسية تقدماً جعل هذه النظريات تشبه تفسير أرسطو للإبصار بأنه شعاع يخرج من العين إلى الأشياء . فلو كانت كراهية ما هو مغاير غريزة ، لكانت خاصية تحملها الكروموسومات فتنتقل بالوراثة إلى جميع أفراد الجنس أو الطائفة ، ولاستحال عند ذلك أن يتزوج مسلم من قبطية أو قبطى من يهودية ، ولو كان تعصب البيض ضد الزنوج غريزة لما تزوج مصرى من زنجية أو فرنسية من زنجى ، وكلنا نعلم أن هذه وقائع نشاهدها من حين لآخر .

بقى أن بعض البحوث الحديثة وأخص بالذكر منها بحوث رينيه شبتز(٥) كشفت عن ظاهرة هامة تتصل بهذا الموضوع . فقد تبين أن الطفل يمر فى الشهر الثامن من عمره بما سماه شبتز بأزمة الشهر الثامن . وخلاصتها أن الطفل يبدأ عند ذلك فى التمييز بين أهله وبين الغرباء ، وأنه يجفل جفولا شديداً من رؤية الغرباء . وفى لغتنا الدارجة لفظ يستخدمه النساء فى مخاطبة الغير فيقلن « يا ادلعدى » ويغلب أن أصله « يا هذا العدو » ، كأن الغير والعداوة صنوان . أما أزمة الثمانية أشهر فمهما يكن من أمر تفسيرها ، فالذى لا شك فيه أنها ترجع إلى أن الطفل يكون إلى ذلك السن فى غمرة الطمأنينة ، التى تتألف من ارتباط خبرات الرضى والأمن بشخص أمه ، وأن نضجه الفسيولوجى فى الشهر الثامن يهيئوه إلى الخوف عندما يدرك وجود أشخاص لم ترتبط بهم خبرات الرضى ، فكأن الإشفاق والخوف من امتناع الرضى والأمن هو الشرط الأساسى فى بزوغ الشعور بالغير وبالتالى الشعور بالذات . والذى يهمنا من هذا كله أن أزمة الثمانية أشهر إنما هى نتيجة لخبرات معينة أى لعملية تعلم ، كما أن هذه الأزمة لا تلبث أن تمر بسلام عندما تسبغ الأم على الغرباء نفحة من عبيرها الذكى ، أى عندما يتعلم الطفل تحت إرشاد أمه أن مجئ الغرباء لا يقتضى

حتما غيابها أو امتناع الأمن .

* * *

انتهيت بذلك من العامل النرجسى فى تبرير التعصب ، وينبغى أن أذكر أن هناك عوامل أخرى تكشف عنها التجارب الإكلينيكية ، ولكنها قطعاً أقل أثراً من العوامل السابقة بل هى نتيجة لها .

فهناك مثلا عامل إسقاط الذات العليا عند ما تكون كارهة غضوبة . وإليكم حلماً لمريض مصرى مسلم . رأى النحاس باشا ومكرم عبيد باشا يتناقشان ، وكان مكرم باشا ينظر إلى النحاس باشا شذراً . ومن الخواطر التى تداعت لهذا المريض مع هذا الحلم ، أن مكرم باشا قال عندما تزوج النحاس باشا وأقبل على الدنيا ونعيمها : « إذا اشتهى فقد انتهى » . وتدل مجموعة خواطر المريض على أن النحاس باشا يمثله فى رغباته فى الاستمتاع بملذات الدنيا ، وأن مكرم باشا — وقد ذكر بصدده أن الأقباط لا يضمرون خيراً للمسلمين — يمثل ضميره الصارم ينذره بالويل والثبور ، ويصدر حكمه عليه بالفناء إذا سولت له نفسه الاشتهاء . وواضح أن إسقاط مثل هذه الذات العليا القاسية ، غير المنسجمة مع باقى جوانب الشخصية ، حتى لتكاد تكون عنصراً غريباً فيها ، يتوقف على تاريخ سابق خلع على الطوائف الأخرى مسحة المضطهد الواقف بالمرصاد .

وهناك غير ذلك عوامل ثانوية أخرى ولكنى أكتفى بهذا القدر فلم أقصد إلى الحصر ولا إلى الاستقصاء الكامل ، وينبغى لى الآن أن أذكر أننا أطباء ، وأن علينا واجب العلاج بعد واجب التشخيص . على أننى مع ذلك أحب أن أقرر أننى لا أعتبر ما تقدم تشخيصاً وافياً ، وإنما لا يعدو ذلك أن يكون طرحاً للمشكلة ، وواجبنا أن نمضى فى هذا النوع من البحث مزودين بأدوات البحث التجريبى والإكلينيكى وغيرهما ، لأنه من حسن الطالع أنناأزاء ظاهرات نفسية ، جعلت بطبيعتها طريق التشخيص وطريق العلاج واحداً .

* * *

وبعد فقد وضح مما تقدم أنه لا سبيل إلى ضبط العدوان فضلا عن نقله إلا إذا عالجنا مصادر النقمة والحرمان الأصلية ، ومعظمهما كما رأينا ينشأ فى المحيط الداخلى . وغنى عن البيان أن هذا يقتضى دراسة الأحوال الاقتصادية ،

ولا بد لنا من الاستعانة فى ذلك بالإخصائيين فى علوم الاقتصاد .

على أنه ينبغى لنا أن نحذر من التعميم السريع لكيلا نرجع كل مشاعر الحرمان والسخط إلى مصادر مادية . فقد دلتنا دراستنا السيكولوجية على أن المصادر النفسية قد تكون أعظم أثراً ، كما دلتنا على أن مسئوليتها تقع أول ما تقع على أقرب المقربين أى على الأهل ، وهذا يفسر الضرورة الحيوية فى التوسل بكبش الفداء للتنفيس عن النقمة . ولا أشك فى أن كل من أتيح له أن يتابع شيوع مظاهر القلق والضيق لدى طلاب المدارس والجامعات المصرية فى السنوات العشر الأخيرة ، قد أدرك أن هذه الظواهر تتصل اتصالا وثيقاً بأحوال الأسرة المصرية ونماذج التربية فيها . لا بد لنا إذن من دراسة تفصيلية لأحوال الأسرة ، وتحديد مدى ما تخلفه فى نفوس الناشئة من الافتقار إلى الأمن ، ومبلغ قابلية الفرد فى المجتمع المصرى لاحتمال أسباب الحرمان التى لا مفر منها ، ومدى ما زودته التربية — فى الأسرة — بأدوات معالجة الحرمان معالجة رشيدة .

بقيت مسألة أخيرة وهى غلبة التوحد الطائفى الدينى على غيره من أنواع التوحد بالمنظمات الحضارية الأخرى فى الشرق الأوسط . وهذه مسألة تخضع للتطور النفسى الاجتماعى كما سبق أن قدمت . فإن عدم استقرار النظم الحضارية الأخرى وتزاحم الحضارتين الغربية والشرقية فى الشرق الأوسط ، لم يترك للأفراد غير سند التوحد الطائفى .

وأخيراً يجب أن نذكر أن مظاهر العدوان والكراهية والنقمة لدى المرضى العصابيين تقل كثيراً بعد علاج نفسى ناجح ، ويحل محلها شعور بالتسامح ، مما يدل على إمكان علاج مظاهر التعصب ، وهى فى نهاية الأمر مظهر للصراع وما يتضمنه من عدوان وكراهية .

والخلاصة أنه يجب أن تخضع ظاهرة التعصب وغيرها من الظاهرات الاجتماعية للأسلوب العلمى فى وصفها وتحليلها وتعليلها إذ أن الأسلوب العلمى يتضمن بطبيعته الموقف الموضوعى الذى يتجرد إلى أقصى حد مستطاع من تأثير الأهواء والدوافع الذاتية المغرضة ، وبالتالى فهو خير سبيل إلى تحقيق التسامح .

ولنذكر ما جنته الإنسانية من تطور موقفها إزاء الزيغ والانحراف النفسى فقد كان مرضى العقل يكبلون بالسلاسل ويعاملون أسوأ المعاملة كما لو كانوا أشراراً حتى جاء الطبيب الفرنسى بينل وفك قيودهم ونادى بمعاملتهم كمرضى

لا كأشرار . وهكذا كان الحال إزاء المجرمين والأطفال المنحرفين فإن الموقف العلمى الحالى غير من موقف المجتمع إزاءهم تغييناً تاماً عاد بفائدة كبيرة على المجتمع نفسه . فلا بدّ لنا إذن أن نقف الموقف نفسه فى ميادين الاجتماع والسياسة إذا أردنا الوصول إلى حلول فعالة .

وقد بينا أن التعصب يؤدى وظيفة نفسية خاصة تتلخص فى التنفيس عما يعتلج فى النفس من كراهية وعدوان مكبوت وذلك عن طريق عمليتى النقل والإبدال دفاعاً عن الذات وعن من تحبه . فالمتعصب إذن يجنى فى موقفه كسباً ، غير أن هذا الكسب لا يختلف عما يجنيه العصابى من سلوكه الشاذ ، أى أنه كسب وهمى ناقص يفوّت على صاحبه فرصة حل إشكاله حلا رشيداً واقعياً مجدياً.

وبعد فإنى أرجو فى نهاية هذا الحديث أن تصح عزيمتنا على تجنيد قوانا لقتل التعصب بحثاً .

مصطفى زيور

المراجع

1. Hovland and Sears., Minor studies of aggression. Cited by Dollard, Miller and others; Frustration and Aggression. Yale University Press. New Haven 1939 p. 44.
2. Lœwenstein : The Historical and Cultural roots of Anti-semitism in Psychoanalysis and the social Sciences. ed. by Roheim 1947.
3. عبد المنعم المليجى : تطور الشعور الدينى عند الفرد . رسالة الماجستير فى الآداب من جامعة فؤاد الأول ١٩٥١
4. Dodd., A social distance test in the near East, Amer. J. Sociol., 1935, 41 Cited by Murphy and Newcomb : Experinental Social Psychology. New-York 1937.
5. Spitz : Hospitalism. The Psychoanalytic Study of the child. New-York 1945. I. Anaclitic depression, ibid II. 1946. The Smiling response. Genetic Psychol. Monogr. 1946. 34

بعد إلقاء المحاضرة دارت مناقشة بين الحاضرين تم الاتفاق بعدها على القيام بدراسة ظاهرة التعصب وما يتصل بها من مشاكل الأسرة وذلك عن طريق استخبار . وستنشر المجلة فى عددها القادم نص هذا الاستخبار .